هجرات الموريسكيين إلى الجزائر
ومساهمتهم في مواجهة المد الإيبيري في حوض البحر الأبيض المتوسط
خلال القرن السادس عشر الميلادي

أ.مرجاني عبد القادر

المركز الجامعي أفلو (الأغواط)

الملخص:

بسقوط آخر معاقل الإسلام بأقصى جنوب غرب أوروبا غرناطة بني الأحمر(897هـ/1492م) انتهى الحكم الإسلامي هناك، فانتهج الإسبان سياسة متابعة المسلمين الباقين بالأندلس وتعقب المهاجرين الفارين إلى دول شمال إفريقيا وهو ما عرف بالريكونكيستا (حركة الاسترداد) ، وذلك للحيلولة دون قيامهم بالجهاد البحري انتقامًا لما تعرضوا له، وقد أسفرت هذه السياسة عن استيلاء الإسبان على العديد من المراكز بالسواحل الجزائرية، ففرضوا سيطرتهم على المرسى الكبير(1505) و وهران (1509م) ومستغانم (1511) وهنين (1512). إلا أن هجرات الأندلسيين على بلاد المغرب عادت على سكانه بالنفع في شتى المجلات ومناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية منها، فاندمج الوافدون مع السكان المحليون واستطاعوا الوقوف معهم ضد الحملات الصليبية والهجمات المتكررة على السواحل، وهو ما حدث في الجزائر عندما تم رد حملة سنة 1519م بقيادة ملك الصقليتين "هيغو دي مونـدادي" (Hugo De Mondadé) في أربعين سفينة، وهجوم الإمبراطور شارلكان نفسه سنة 1541م في غزوة صليبية كبرى، وحملة الصدر الأعظم سنان باشا سنة 1573 في تونس لطرد الإسبانيين منها وإخراجهم من مرسى حلق الوادي وحصن البستيون. وبذلك استطاع الجزائريون وبمساعدة الموريسكيون أن يصدوا العديد من الهجمات الشرسة للإسبان، وتوطيد دعائم الدولة الجزائرية الحديثة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

Abstract:

The Islamic rule ended there (897AH / 1492 AD), and the Spanish followed the policy of following the remaining Muslims in Andalusia and tracking the fleeing migrants to the North African countries known as the Rikonikista (the Redemption Movement), in order to prevent them from the maritime jihad In retaliation for what they were subjected to. This policy resulted in the seizure by the Spanish of many of the centers on the Algerian coasts. They took control of the great berth (1505), Oran (1509), Mostaganem (1511) and Henin (1512). However, the Andalusian migrations on the Maghreb returned to its inhabitants in various magazines and aspects of social, economic, political and even military life. The immigrants merged with the local population and were able to stand with them against the

Crusades and the repeated attacks on the coasts. This happened in Algeria when the campaign of 1519 Under the leadership of the king of the two Sicilies "Hugo De Mondadé" in forty ships, the attack of Emperor Charlecan himself in 1541 in a great crusade, and the campaign of the great Sennan Pasha in 1573 in Tunisia to expel the Spaniards and take them out of the anchorage of the Valley of the Valley and Bastion. With the help of the Maurice, the Algerians were able to repel many fierce attacks by the Spanish and to consolidate the foundations of the modern Algerian state in the Mediterranean basin.

الكلمات المفتاحية: الجزائر/ الموريسكيون/ المد الإيبيري/ العثمانيون/ حوض البحر الأبيض المتوسط

مقدمة:

كان القرن الثالث عشر الميلادي قرن ضعف للموحدين، لاسيما بعد هزيمتهم في معركة العقاب سنة 1212م أمام النصارى، واستمر هذا الضعف والانحلال يتنامى ويتعاظم إلى غاية سنة 1269م أين استطاع المرينيون القضاء نهائيا عليهم، ونتج عن ذلك ظهور ثلاث دول هي الدولة الحفصية بتونس، الدولة الزيانية بالجزائر، والدولة المرينية بالمغرب الأقصى، ولكن الصراع بقي قائما بين هذه الدول للتوسع على حساب بعضهم البعض، وبلغ هذا التفكك والانقسام مداه خلال القرن 15م، وكانت دولة بني عبد الواد أضعف هذه الدول، إذ لم تكن تملك الأساس الاقتصادي الذي كان للحفصيين، وليس لها قوة المرينيين العددية والقبلية، هذا إلى جانب توسطها هذين الدولتين.

أما في الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط بالأندلس، فكانت قوة المسيحيين تزداد يوما بعد يوم، وتتوسع على حساب أراضي الإمارات الإسلامية، وفي سنة 1469م حدث تقارب بين إماراتي قشتالة وأراغون بزواج سياسي بين فرديناند وإيزابيلا، وانتهى هذا التحالف بالقضاء على آخر معاقل المسلمين بالأندلس وهي غرناطة مملكة بني الأحمر سنة 897هـ/1492م، وكان من بين أهم نتائجه إبادة المسلمين بها والتنكيل بهم، ما اضطرهم إلى الهجرة إلى دول المغرب الإسلامي، وأدى هذا الوضع إلى قلب موازين القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ساهم الموريسكيون بعد تنقلهم إلى الجزائر في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، فقد كان أغلب المهاجرين من الأمراء والعلماء والتجار، فنقلوا كل علومهم وخبراتهم وأموالهم معهم. وعليه فإننا في هذا المقال سنحاول تسليط الضوء على مدى مساهمة الموريسكيين في الحياة السياسية والعسكرية في الجزائر، ومدى تدعيم قوتها في الحوض الغربي للمتوسط، وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية:

1. **ما هو مفهوم مصطلح الموريسكيين؟**
2. **ما هي أهم أوضاع الجزائر مع مطلع القرن 16م؟ وهل استطاعت مواجهة المد الإيبيري؟ 3/ ما هي أهم الهجرات الموريسكية إلى الجزائر واستقرارهم بها؟**

3. فيما تمثلت مساهمات الموريسكيين الأندلسيين في الحملات العسكرية والبحرية الجزائرية؟

اولا: مفهوم مصطلح الموريسكيون:

"الموريسكيون "أو" الموريسكي "من المصطلحات المتداولة في التاريخ العربي والإسلامي، لكنه مع ذلك يظل مفهوما مبهما بحكم التعريفات المتعددة والمختلفة التي يرد بها بين باحث عربي وآخر، وتأتي لفظة "الموريسكي" في الكثير من الكتابات والتصانيف دالة على المسلمين الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حاليا) بعد فتحها على يد طارق بن زياد، إلى غاية سقوط آخر مملكة إسلامية غرناطة سنة 1492م. وقاموس اللغة الإسبانية يشير بأن كلمة موريسكي مصدرها كلمة" مورو" ليشمل Morisco باللاتينية، وتعني سكان شمال أفريقيا، ثم تحولت إلى لفظة موريسكي معناها المسلمين الذين بقوا في إسبانيا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الممالك الإسلامية، وأجبروا على اعتناق المسيحية[1]، ويقول الخبير في التاريخ الأندلسي.

ويشير مانويل باريوس أغليرا من جامعة غرناطة أن الوضع القانوني للموريسكي ظهر رسميا في غرناطة وفي باقي مملكة إسبانيا عندما أصدرت السلطات يوم 12 فيفري 1502 مرسوما يخير المسلمين بين اعتناق المسيحية أو النفي ومغادرة إسبانيا، وهكذا فالموريسكي تعني المسلم الذي اعتنق المسيحية في إسبانيا بعد هذا التاريخ، وكان المسلمون الذين يعيشون تحت الحكم المسيحي قبل صدور المرسوم المذكور يطلق عليهم المدجنون[2].

ونصت اتفاقية تسليم غرناطة الموقع عليها يوم 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1491 والتي طبقت يوم 2 يناير/كانون الثاني 1492 على احترام المسيحيين لممتلكات المسلمين ومعتقداتهم واستعمال الشريعة الإسلامية كمصدر للقضاء، بل شددت على السماح بالعودة للمسلمين الذين ذهبوا إلى شمال أفريقيا ولم ترقهم الحياة هناك[3]، غير أن رجل الدين المسيحي الكاردينال سيسنيروس مارس سياسة اللاتسامح مع المسلمين ابتداء من سنة 1499م، فحمل المسلمون في غرناطة السلاح ضده لكن سرعان ما جرى إخماد انتفاضتهم.

ويتعدد استعمال هذا المصطلح في الوقت الراهن، فالباحثون يحافظون على مفهومه التاريخي والقانوني، أي يطلقونه على المسلمين الذين تحولوا قهرا إلى المسيحية والذين هجرّوا في بداية القرن السابع عشر إلى عدد من مناطق البحر الأبيض المتوسط، كما تطلقه الصحافة وبعض المفكرين ومن ضمنهم الكاتب الإسباني خوان غويتيسولو على المغاربة الوافدين على إسبانيا في إطار الهجرة، حيث يجري تسميتهم "الموريسكيون الجدد."

ومنذ عام 1502 دخل المسلمون الذين أضحوا موريسكيين من الناحية القانونية، نفقا مظلما سينتهي بتشتيتهم في عدد من مناطق إسبانيا إلى غاية صدور مرسوم جديد في9 افريل 1609 أقر بالطرد النهائي بعدما عانى الكثير منهم من ويلات محاكم التفتيش.

ثانيا: الجزائر في مواجهة المد الايبيري في القرن السادس عشر:

تطورت الأوضاع خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي سواء في شبه الجزيرة الإيبيرية أو في بلاد المغرب، فقد شغل عرش إسبانيا خلال القرن كله ملكان هما شارلكان (1516-1556م) وفليب الثاني (1556-198م)، كان شارلكان مهتما بمشاكل وراثة العرش في إمبراطوريته الشاسعة الممتدة عبر إيطاليا وألمانيا والبلاد المنخفضة وجزء من فرنسا، إضافة إلى إسبانيا وممتلكاتها في العالم الجديد، وحركة الإصلاح الديني وما نشأ عنها من تيارات وثورات، لذلك لم يعد يولي اهتماما كبيرا لمشاكل الأندلسيين المتنصرين وقضاياهم مع محاكم التفتيش أو علاقتهم بالبلاد الإسلامية في العدوة الأخرى، ولو أنه ظل خاضعا للقساوسة المتعصبين يؤيد تصرفاتهم تأييدا مطلقا ويهاجم كل من يحاول مساعدة أولئك المغلوبين على أمرهم أو تخليصهم من سجون المحققين ومحارقهم[4].

ورث فيليب الثاني عن أبيه هذه المشاكل، ولو أن شارلكان تنازل عن بعض تيجانه لأخيه فرديناند الذي أصبح إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة، وأصبحت النمسا وبوهيميا والمجر في حوزته، لكن فيليب ملك إسبانيا كان من نصيبه أيضا الأراضي المنخفضة، التي عرفت مضاعفات خطيرة بسبب حركة الإصلاح الديني، واندلعت فيها ثورات اختلط فيها النضال الديني بالنضال السياسي، فكانت أعظم كارثة لإسبانيا انتهت باستقلال الولايات الشمالية عنها برئاسة "وليام أورانج"[5].

وفي المغرب الأقصى استهل القرن العاشر / السادس عشر الميلادي ومعظم الثغور على البحر المحيط محتلة من طرف البرتغال من طنجة إلى وادي ماسة بساحل السوس الأقصى، علاوة على سبتة ومليلية على البحر المتوسط، والدولة الوطاسية في فاس عاجزة عن ضبط الأطراف البعيدة، وبلاد ما وراء الأطلس سائبة موكولة إلى نفسها[6].

أما في تونس والجزائر فقد ظهر الإخوة بربروس[7]، حيث أعجب بشجاعتهم الملك الحفصي أبو عبد الله فأقطعهما مرسى حلق الوادي سنة 1504م ليكون منطلق عملياتهم الجهادية، ثم استغاث أهل بجاية بالأخوين عروج وخير الدين، فسارا إليهما وتغلبا على البحرية الإسبانية التي كانت مرابطة بمرساها، ونزل عروج إلى البر مع فريق من رجاله، فأصيب بطلقة نارية كسرت ذراعه فبتر، وحاول الأخوين مرتين أخريين لفتح بجاية ولكن دون جدوى[8].

اتجه عروج بعد ذلك إلى مدينة جيجل (على بعد 102 كم غربي بجاية)، بعد أن استنجد به أهلها وكان الجنويون يحتلونها منذ ثلاثة قرون ويستعملونها لأغراض تجارية إلى أن اكتسحها الإسبان في حملتهم الأخيرة، وقد تغلب الأتراك ومن انضم إليهم من الأهالي على الحامية الإسبانية ودخلوا المدينة عام 1514م، وبعث الأخوان التركيان حظهما من الغنيمة الثمينة هدية للخليفة العثماني سليم الأول، الذي لم يلبث أن رد على هذه الهدية الرمزية بأربع عشرة سفينة حربية محملة برجال أشداء وعتاد حربي، وتلاحق الأندلسيون المهاجرون بجيجل للعمل في الأسطول الإسلامي، فأصبحت بذلك مركزا جهاديا طلائعيا في المغرب الأوسط.

وبعد سنتين (1516) أرسل أهالي مدينة الجزائر وعلى رأسهم سالم التومي رسالة إلى الأخوين عروج وخير الدين ليساعدهم على طرد الإسبانيين المحتلين حصن الصخرة، فساروا إليهم براً وبحراً في 18 سفينة، ودخلوها دون قتال فنظم عروج المدينة وما حولها وقضى على الشيوخ المتطلعين إلى السلطة وبايعه أهل الحل والعقد أميرا على الجهاد، ولم تلبث مدينة الجزائر لوفرة من التحق بها من المهاجرين الأندلسيين أن أصبحت المركز الجهادي الأول في المنطقة، وقام عروج بتحرير مدينة تنس بجيش بري وآخر بحري معظمه من مهاجري الأندلس قبل أن يتوجه إلى تلمسان استجابة لرغبة أهلها، لكنه قتل هناك سنة 922هـ/1518م بتآمر بين الإسبان وعملائهم الزيانيين[9].

خلف خير الدين أخاه عروج في إمارة الجهاد بطلب من أعيان مدينة الجزائر، لكنه اشترط عليهم أن ينضموا إلى الخلافة العثمانية، فبايعوا السلطان سليم الأول وخطبوا باسمه وأصبحت الجزائر بذلك ولاية عثمانية، وقد سمى الخليفة خير الدين بايلرباي (أمير الأمراء) حاكما عاما وبعث إليه بأسطول قوي أزعج الإسبانيين والأوربيين معا.

وجه الإسبان ضد مدينة الجزائر هجومين ساحقين، أولهما سنة 1519م بقيادة ملك الصقليتين "هيغو دي مونتادي" (Hugo De Mondadé) في أربعين سفينة فهزمهم خير الدين برا وبحرا شر هزيمة، وترأس الهجوم الثاني الإمبراطور شارلكان نفسه سنة 1541م في غزوة صليبية كبرى ضمت إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وحفيد البابا ورهبان مالطة الفرسان، بلغ عدد الجيش 24000 رجل و2000 فرس و450 سفينة نقل و65 سفينة حربية كبرى وخير الدين يومئذ في اسطنبول بعد أن سمي "قابودان باشا" أمير البحر للأسطول العثماني، كانت الحامية التي واجهت هذا الجيش العرمرم تتركب من 800 تركي و5000 أندلسي مع بعض الأعراب بقيادة حسن أغا، وقد انكسر شارلكان وجنده شر انكسار براً وبحراً وتحطم معظم أسطوله على الساحل بسبب عاصفة بحرية هوجاء[10].

ثم كانت حملة الصدر الأعظم سنان باشا سنة 1573 آخر الحملات التركية الكبرى لطرد الإسبانيين من تونس وإخراجهم من مرسى حلق الوادي وحصن البستيون، وبذلك استرجع حلق الوادي مكانته كمركز أول للجهاد في الساحل الشرقي بسبب الأندلسيين المتوفرين فيه، وكانوا يعملون تحت نظر الدايات الأتراك في مجال بحري فسيح يمتد من صقلية ومالطة إلى جزر البليار وسواحل إسبانيا الجنوبية[11].

وهذا ما قدمه لنا دييغو دي هايدو في كتابه (طبوغرافية وتاريخ الجزائر) وفيه الكثير عن من الأخبار العجيبة حول الوضع قبل وصول المطرودين، فعدد الموريسكيين يصل إلى ألف أسرة مقسومة إلى سلالتين المدجنين وهم القادمون من الولايات القشتالية، والحدوديون وهم من أراغون، ويختلفون عن السكان الأصليين والأتراك بلونهم الأبيض، ويمارسون حرفا فنية مثل الحدادة والخياطة والبناء وصناعة الحرير وصناعة الأحذية ...، كذلك كان يوجد متاجر صغيرة، في حين أن مجموعة قد أخذت تمارس تصنيع الأسلحة لرياس البحر من بنادق وبارود، فكان النشاط البحري أغلب من يعمل فيه من المرتدين، ولكن بوصول الموريسكيين أخذ دفعة جديدة[12].

ثالثا: الهجرات الموريسكية إلى الجزائر:

انتهج الإسبان سياسة متابعة وتعقب المهاجرين الأندلسيين ببلاد المغرب وهي ما أصطلح عليها بحركة الاسترداد (Reconquista)، وذلك للحيلولة دون قيامهم بالجهاد البحري والعودة إلى الأندلس انتقامًا لما تعرضوا له، وقد أسفرت هذه السياسة عن استيلاء الإسبان على العديد من المراكز الساحلية بالسواحل الجزائرية، فقد فرضوا سيطرتهم على المرسى الكبير في عام 1505) و مدينة وهران في عام 1509م، واستولوا على مدينة مستغانم عام 1511، ووسيطروا على ميناء هنين عام1512.

فارتبط هذا العصر في الجزائر بتحول أعداد كثيرة من الأندلسيين من إسبانيا للاستقرار بالمدن والأقاليم الجزائرية الساحلية خاصة، فكانت أهم مراكز الاستقرار بالغرب الجزائري وهران ونواحيها ومستغانم وأرزيو وجهاتها وتلمسان وقلعة بني راشد ومازونة وندرومة وبالشرق الجزائري استقرت جاليات أندلسية ببجاية وجيجل والقل وقسنطينة وبونة(عنابة) والقالة، أما الوسط فاختارته بعض الجاليات الثغرية القادمة من وشقة وسرقسطة البيضاء وبطليوس بالغرب(البرتغال).وتجمع الأندلسيون في مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال وتادلس ومليانة والمدية ومازونة وفي إقليمي المتيجة والساحل القريب منها[13].

عانى الموريسكيون كثيرا في البحار وهم في طريقهم إلى بلاد المغرب، فأثناء انتقالهم اكتروا البحارة النصارى ودفعوا لهم أجرتهم من أجل إيصالهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين، ولكنهم خانوهم وأخذوا كل ما لديهم ورموهم في بعض الجزر في حوض البحر المتوسط، وقد شارك في هذه العمليات الشنيعة أرباب السفن الفرنسية، الذين لم يتوانوا عن ارتكاب أفضع الجرائم في حق هؤلاء البؤساء وهذا بشهادة المحاكم الفرنسية نفسها، وبذلك يكون قد تعرض الموريسكيون إلى السلب والنهب والاضطهاد في البر والبحر[14].

وقد سجل المقري هذا الانتقال وبين أماكن استقرارهم وما تعرضوا له أثناء عملية انتقالهم قائلا: "فخرجت ألوف بفاس وألوف بتلمسان ووهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكر جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال"[15].

وقد آثار هذا استنكار وغضب الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل الذين دعوا إلى معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة الموريسكيين، وكان في طليعتهم الشيخ محمد أقدار االتوجيني الذي استنهض الشيخ أحميدة العبد وحثه على أن يغزو بعشائر سويد قبيلة هبرة لاعتدائها على الموريسكيين بنواحي أرزيو، وهذا ما أورده أبي راس الناصري في كتابه عجائب الأسفار[16].

تقاطر عدد كبير من الموريسكيين على الجزائر حتى بلغ عددهم في العاصمة وحدها 25000 موريسكي، وكان استقبالهم على العموم في البداية حسنا بفعل وجود جالية موريسكية مهمة كانت

مستقرة بها قبل الطرد، فقد ذكر الأب هايدو على أن عددهم كان يبلغ 1000. وقد استقبلت وهران حوالي 22000 موريسكي، لكنها لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم، فاضطر فريق منهم مكون من حوالي 600/500 موريسكي التوجه إلى تلمسان[17].

كما انتقل الأندلسيون إلى مدينة مستغانم، وكان معظم سكانها القدامى قد هجروها بسبب اضطراب حبل الأمن حواليها وتدهور سلطة ملوك تلمسان، فعمروها وحولوا ميناءها الصغير الذي كان يستقبل السفن التجارية الإيطالية إلى ميناء حربي ترابط فيه اثنتا عشر سفينة يركبها مهاجرو الأندلس الثغريون، وقد هاجموا مدن بلنسية وأليكانت وغيرهما وغنموا منها [18]. وقد توجه الأسطول الإسباني إلى مستغانم بقوات لا قبل لهم بها، فوقعوا وثيقة استسلام في 22 ماي 1511م، وتفرق الأندلسيون في مختلف الجهات لبضع سنوات، إلى أن تكونت مراكز جهادية تركية جديدة فالتحقوا بها[19].

كانت الأسر الأندلسية في الجزائر متحدة فيما بينها مؤازرة لبعضها البعض، رغم وجود صعوبات في أول الأمر للاندماج مع الأسر الجزائرية، لكنه تمكنت من التأقلم، وكان الموريسكيون يقومون بشعائرهم الدينية الإسلامية على ما يرام، ويشيدون المساجد والحمامات ويؤدون المناسك كلها على أحسن ما يرام. وحسب لويس كارديك (Louis Cardaillac) فإن مأساة الموريسكيين وذنبهم أنهم كانوا يحملون ماضيهم معهم أينما حلوا وارتحلوا، فهم في إسبانيا وفرنسا مسلمون، وهم في شمال إفريقيا مسيحيون، وأمام هذه الوضعية حاول العديد منهم العودة إلى إسبانيا[20].

رابعا: مساهمة الموريسكيون في الحملات العسكرية:

ساعد الأندلسيون في تدعيم الحكم العثماني بالجزائر، وقدموا يد المساعدة والعون للأخوين عرُّوج وخير الدين بربروس في صراعهم مع الإسبان، حيث كان الأخوان سببًا بعد الله في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام . فاتُخذَا منهم جنودًا لحراسة أبراج مدينة الجزائر وألَّفوا منهم فرقًا عسكرية شاركت في توطيد الحكم العثماني في الأقاليم الداخلية للجزائر، فقد شارك 500 أندلسي من أهالي غرناطة وأراغون وبلنسية في الحملة التي شنها خير الدين للقضاء على حميد العيد حليف الأسبان المستبد بمدينة تنس ونواحيها عام 1517م، كما كلفت جماعات الأندلسيين بحراسة مدينة المدية بعد أن تمكن خير الدين من تنحية محمد بن العابد وإلحاقها بالسلطة المركزية بالجزائر، كما قضت فرقة من الرماة تتكون من حوالي (500 فرد) على حاكم مليانة المدعو حسن أيام حسن بن خير الدين[21].

لعل أغلب العمليات العسكرية التي قام بها الموريسكيون، تتمثل في شنهم حربا استنزافية حقيقية، وتضييق الخناق على مصالح أعدائهم في مجال يمتد عرض الشواطئ المغاربية إلى سواحل إيبيريا، كما أدخلوا بإيالة الجزائر عدة صناعات جديدة، وعملوا على تطوير ما كان موجود من المهن التقليدية، ومن بين الصناعة نجد صناعة الأسلحة وتحضير البارود وتزويد البحارة الجزائريين به، بالإضافة إلى هذا فقد شارك الموريسكيين الصناع المحليين في بناء السفن بترسانة الجزائر وشرشال[22].

كما أن هايدو قد ذكر أن حوالي 6000 موريسكي أندلسي نزحوا من إسبانيا نحو الجزائر معظمهم يمتهنون صناعة الجلود وصنع الأسلحة، مما يؤكد شهادته على نشاطهم الجهادي والعسكري ومساهمتهم الفعالة في تدعيم إيالة الجزائر[23].

وتظهر أهمية الموريسكيين أيضا بشمال إفريقيا من خلال التقارير الواردة من المنطقة إلى إسبانيا، ففي تقرير سري إسباني عن حالة الجزائر بعث به من بجاية في 29 مارس 1536م ورد ما يأتي: "يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك، وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات ..."[24].

وقد ظلت هذه الأهمية تزداد باستمرار، فقد ذكر فليب الثاني لسفير فرنسا "أنه يوجد بمدينة الجزائر 15 ألفا ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف رجل من العرب الذين نزحوا من إسبانيا في السنوات الأخيرة وهم من خير الجنود"[25].

خامسا: مساهمة الموريسكيون في البحرية:

لقد كان شارل الخامس يعي جيدا الدور الذي يمكن أن يقوم به الموريسكيون في شمال إفريقيا لمهاجمة الشواطئ الإسبانية، وإعاقة حملته الصليبية الكبرى على المنطقة، فعند احتلاله تونس في صيف 1535م فرض على الملك الحفصي معاهدة ينص أحد بنودها على "أن مولاي الحسن لن يقبل في مملكته أحد من العرب الأندلسيين (الموريسكيين) الذين اعتنقوا أخيرا الدين المسيحي، باعتبارهم رعايا جلالته الإمبراطورية، سواء أكانوا من بلنسية أو غرناطة أو أي مكان آخر في مملكته، وأن الملك الحفصي لا يسمح لهم بالقدوم وبالإقامة بتونس، بل على العكس من ذلك يطردهم من مملكته ويرحلهم تماما عن طريق ضباطه ويعتبرهم كأعداء"[26].

إن الموريسكيين الأندلسيين الذين يمثلون أقلية هامة في الجزائر، قد ساهموا إلى جانب عروج في المعارك ضد الإسبان سنة 1516م، وقد تضاعف هذا العدد بشكل بارز أثناء ولاية حكم خير الدين لمدينة الجزائر، وهم بالإضافة إلى معرفتهم الكاملة لميدان العدو كانوا يتكلمون لغته، ويعتبرون أنفسهم ممثلي أقلية بائسة امتحنت وتعرضت إلى مناورات اسبانية كاثوليكية متعصبة للقضاء عليهم[27].

ويشير مصطفى زبيش إلى مساهمة الموريسكيين في الجانب الجهادي البحري وغيره فيقول: "وظهرت آثار الأندلسيين في إحياء الأراضي واستغلال خيراتها، وراجت المصنوعات اليدوية وتحرك بذلك دولاب التجارة فنمت الثروة العامة، وجهزت السفن لمقاومة القرصنة الرومية فكانت تعود إلى مراكزها مثقلة بالغنائم مثمونة بالأسرى"[28].

أما الباحث المنور مروش فيقول: "جلب الأندلسيون إلى مناطق هجراتهم ليس فقط تقنيات جديدة، بل كانوا قبل كل شيء مصدر للشعور العنيف المعادي للإسبان والمتشبث بإرادة استعادة الأرض السلبية، إن دورهم في تنمية القرصنة المغاربية ابتداء من القرن 14م مازال مجهولا إلى حد كبير لغياب

الدراسات المعمقة حول الموضوع، لكن من المعروف أنهم جعلوا بعض الموانئ كشرشال وبرشك قواعد بحرية أندلسية كان لها الدور المهم في القرصنة"[29].

وحسب مراسلة إسبانية من بجاية تعود لسنة 1536م تشير إلى أن القوات التركية في الجزائر تتكون من ألفين من الأتراك وسبعة آلاف أو ثمانية آلاف من الأندلسيين، وبعد عشرين سنة ذكر فيليب الثاني للسفير الفرنسي في مدريد أنه يوجد في الجزائر نحو 15000 من الجنود الرماة ببنادق ومن الجنود الأندلسيين الجيدين[30].

كما ينسب للموريسكيين الأندلسيين تشييد بطارية [31] تعرف بطبونة الموريسكيين الأندلسيين بأعلى المدينة، وكانت مجهزة بأربعة عشر مدفعاً ولها سبعة عشر كوّة منها تسعة تواجه المرسى واثنتان تقابل الناحية الجنوبية، وأربعة تشرف على مدخل الميناء واثنتان تتحكمان في باب المدينة المعروف بباب الجزيرة[32].

كما ساهم الموريسكيون في القضاء على ثورة الشيخ بوطريق في إقليم الجزائر، ثم نجد خير الدين يستعملهم وهو في مدينة جيجل أين مكث فيها بعد استيلاء أحمد بن القاضي على مدينة الجزائر 926هـ-932هـ/ 1520م-1526م[33]، فأصبح له العديد من المؤيدين في تلك المنطقة، وتعزز جانبه بانضمام الكثير من أهل الأندلس إليه، فتوفرت لديه ظروف جيدة وتعززت قوته فعاد إلى مدينة الجزائر [34]، وبفضل هؤلاء البحارة الجزائريين والعثمانيين والموريسكيين استطاع خير الدين أن يدعم عمارته البحرية التي كانت تتكون من ثلاث سفن عند مغادرة الجزائر، لتصبح تضم 13 سفينة ثم ارتفع عددها ليصل أربعين سفينة، وأصبحت تشكل أسطولا يعتد به والذي بفضله استطاع أن يستولي على مدينة القلّ 1521م ومدينة قسنطينة سنة 1522م[35].

كان للموريسكيين الأثر البارز في الدفاع عن الجزائر وعرقلة الكثير من جهود الإسبان، وحملها في كثير من الأحيان على التريث أو الإحجام عن تنفيذ مشاريعها العدوانية الضخمة على شواطئ المغرب، وحملة خير الدين على جزيرة مينورقة (Menorca) عام 1535م والتي استطاع خلالها أن يأسر ما بين 6000 و8000 أسير خير مثال، حيث تذكر المصادر التاريخية الأوربية أن سكان مينورقة لما رأوا سفن خير الدين تدخل ميناءهم لم يقم الحراس بضربها لاعتقادهم بأنها من الأسطول القادم من تونس، لأن العلم المرفوع كان يشبه العلم الإسباني، وهذا إن دل فإنما يدل على مساعدة الموريسكيين لخير الدين، لأنهم كانوا أدرى منه بعلم الإسبان وبالميناء فرسموا له طريق الدخول[36].

وأثناء تواجد الموريسكيين في البحرية الجزائرية تمكن البحارة من شن 33 غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية في الفترة الممتدة من 1528-1584م، أنقذوا خلالها الكثير من الأندلسيين الفارين والمضطهدين والمهددين بالتنصير أو الموت، ومن أشهر الغارات الغارة التي شنوها غارة إيدين رايس وصالح رايس[37] عام 1529م، حيث حملوا خلالها ستمائة 600 من مسلمي بلنسية كانوا يجتمعون عند مصب نهر أوفيلا (Ovila)، وعمليات حسن فنزيانو[38] الذي نقل عام 1584م حوالي 2000 من الأندلسيين من جهات أليكانت في الوقت الذي قام فيه بحارة جزائريون بهجمات مباغتة على سواحل لورقة وضواحي

قرطاجنة[39]. كما ساهموا في تطوير ميناء بجاية وأسطول الدولة الحفصية أيام السلطان أبي العباس أحمد وتطوير فعاليته في مواجهة الأساطيل البحرية بغرب المتوسط، وكان أمير البحر آنذاك محمد بن أبي مهدي، فجعل من مدينة بجاية أكبر قاعدة لانطلاق الغارات على السواحل الأوربية[40].

أما في شرشال فنجد أن الموريسكيون قد انتظموا على شكل جماعات خاصة تقوم بهجمات سريعة وخاطفة على السواحل الإسبانية، إذ بمجرد ما تصل سفنهم الصغيرة إلى الرمال، ينطقون نحو الداخل لتخليص الأهالي وأسر المسيحيين الذين يباعون في سوق الجزائر، كما ظهرت عائلات موريسكية اختصت في مجال القرصنة، مثل أسرة النقسيس التي هاجمت البرتغاليين والإسبانيين، وكان لهم اثر عظيم في ذلك، فضلا عن هذا فقد ساهموا وزادوا من خطر هجمات القراصنة البربر لسواحل البلاد الأوربية[41].

خاتمة:

الكثير من المؤرخين يؤكدون على أن الموريسكيين قد ساهموا في توطيد دعائم أركان الدولة الجزائرية خلال القرن 16م، وذلك بخبرتهم الحربية وكفاءتهم في مجال صناعة الأسلحة ومعرفتهم الجيدة للبلاد الإسبانية، وأصبح للجزائر أسطول بحري قوي استطاع بفضله مجابهة الأساطيل الأوربية الأخرى في الحوض الغربي للمتوسط، ولا يمكن لشخص أن ينكر دور الموريسكيين في تحديث الجيش الإسلامي والبحرية بالجزائر، ومساهمتهم في الجهاد ضد الحملات الإسبانية وذلك على امتداد الشريط الساحلي لشمال إفريقيا من المغرب مرورا بالجزائر وصولا إلى تونس.

الهوامش:

1. محمد باقر الحسيني، أضواء على نهاية العرب في الأندلس، مجلة أفاق عربية، بغداد، العدد 1، السنة 1978، ص 106.
2. محمد قشتيليو، محنة الموريسكوس في إسبانيا، مطابع الشويخ، تطوان، ط2، 1999، ص 24
3. عبد القادر الميلق ، تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية 1492-1609، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، 2013/2012، ص26.
4. محمد حجي،المرجع السابق، ص ص 63-64.
5. محمد حجي، المرجع السابق، ص 64.
6. محمد حجي، المرجع السابق، ص64.
7. الإخوة بربروس: وهم عروج، خير الدين، إلياس وإسحاق، أصلهم من إحدى الجزر اليونانية، أبوهم يعقوب بن يوسف الفخرجي، وأطلق عليهم لقب بربروسة نسبة إلى لحيتهم الحمراء، وردت هذه الكلمة في كتاب الغزوات لخير الدين ينظر: De Grammont, Histoire D'Alger Sous la Domination Turque (1515-1830),Edite Ernest Lorroux, Paris, 1887, p29.
8. محمد حجي، المرجع السابق، ص68.
9. محمد حجي، المرجع السابق، ص 69.

10. ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، المجلة العربية للثقافة، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، عدد خاص بالتاريخ العربي في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1994م، ص 234. ينظر أيضا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492-1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977م.
11. محمد حجي، المرجع السابق، ص 70.
12. أنطونيو دومينقير هورتز، برنارد بنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون "حياة ومأساة أقلية"، تر: عبد العال صالح طه، تق: محمد محي الدين الأصفر، دار الإشراق، قطر، ط1، 1988، ص 288.
13. ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي(مجلة أوراق) مدريد، العدد الرابع، المعهد الأسباني العربي للثقافة، 1984م.ص ص:111ء118.
14. محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 - 17، إفريقيا الشرق، المغرب، ط3، 1998، ص129.
15. أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1998، ج4، ص 528.
16. محمد رزوق، المرجع السابق، ص 132.
17. محمد رزوق، المرجع السابق، ص 131.
18. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ص 151.
19. محمد حجي، الموريسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة ندوات، الرباط، الندوة الثانية: الموريسكيون في المغرب، سبتمبر، 2000، ص 63.
20. محمد رزوق، المرجع السابق، ص 132.
21. الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج2، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.، ج2، ص41.
22. الميلق عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 111-112.
23. Digo Haedo, Topographie et Hisroire Général Alger, Tr : Monnreau et Berbrugger, Revue Africain, 1871, T14, p 495.
24. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص 278.
25. F. Braudel, Les Espagnols et l'Afrique du Nord De 1492-1577, Revue Africaine, 1928, P358.
26. محمد رزوق، المرجع السابق، ص84.
27. عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، ط1، 1989، ص 15.
28. سليمان مصطفى زبيش، آثار المغرب العربي، المطبعة العصرية، تونس، ط1، 1958، ص 83.
29. المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني "القرصنة، الأساطير والواقع"، ج 2، دار القصبة، الجزائر، ص61.

30. عبد القادر الميلق، المرجع السابق، ص 114.
31. يقصد بالبطاريات الطبانات أو الطبخانات، وهي معاقل للمدفعية في الأسوار والحصون والأبراج وفي التراب بعد حفر حفرة وإحاطتها بأكياس من التراب أو الرمال، بلبروات بن عتو، المنشآت الدفاعية بمدينة الدجزائر وميناءها خلال العهد العثماني، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ع 10، 2010، ص160.
32. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، م و ك، الجزائر، 1984، ص 139.
33. اعبد القادر الميلق، المرجع السابق، ص 119.
34. ورد في الغزوات أن خير الدين رأى في منامه رؤية حثته على العودة إلى مدينة الجزائر، حيث في إحدى الليالي رأى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له "تركت بلدك، فأجابه خير الدين ولكني ضويقت يا رسول الله، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم توكل على الله وارجع إليها"، ينظر: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تص وتع: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص 59.
35. عبد القادر فكاير، الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2001/2000، ص 118.
36. Deigo De Haédo, Hisroire des rois d'Alger, Tr : De Grammont, Alger, Jourdan, 1881 p217.
37. ولد في الإسكندرية، وهو من أصل عربي حسب البعض أو من غربي الأناضول حسب آخرين، كان من أهم رفاق بربروس، أصبح منذ 1529م من طليعة رياس البحر، عين بايلرباي (1552-1556) بسط نفوذ العثمانيين إلى الجنوب وحرر بجاية عام 1555م وكان يعد لحملة على وهران، ولكن الأجل وافاه، ينظر: .Deigo De Haédo, Hisroire des rois d'Alger, p85-
38. هو من أصل إيطالي احترف مهنة الكتابة بمدينة البندقية لذلك دعي بفنزيانو، أسره درغوث باشا وكان عبدا للعلج علي، أسلم ولقب ابن القبطان علي، كان أول من عقد مع بريطانيا معاهدة تجارية 1579م تولى ولاية الجزائر مرتين (1577-1580م) و(1583-1587)، ينظر:
Deigo De Haédo, Hisroire des rois d'Alger, pp 168-181.
39. عبد القادر الميلق، المرجع السابق، ص ص 123-124.
40. عبد الناصر جبَّار، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط، ص131.
41. حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، الجزائر، 2010، ص 53.